حذار! إنك مراقب

لجوزيف بلاكبيرد

بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعه

كان موعد العشاء في مطعم كلاريدج قد حان ، وهو ذلك المطعم الفخم في غرب لندن ، في حي وستمنستر الشهير ، يطل على نهر التيمس وميدان الطرف الأغر ، ويسمع رواده دقات (بيج بن) وهو ناقوس كبرى ساعات العالم . وفي أحد أركان قاعة الطعام وراء أحد الأعمدة البيضاء المموهة بلون الذهب ، جلس رجل من الطاعمين يرقب الموائد الأخرى ويسترق النظرات إلى الجالسين ، ويأخذهم ببصره وهم لا يرونه ؛ ينظر إليهم ويدرس حركاتهم وسكناتهم وهو في نجوة من أنظارهم . وكان الرجل ضخماً ، ذا عينين خبيثتين قد أخفاهما وراء عوينات من الزجاج الأصفر القاتم ، وله من ورائها نظرة ماكرة . وقد جلس أشبه شيء بالسنور الوحشي ، يفتل شاربيه تارة ، وطوراً يمشط بأنامله المرتجفة لحيته الكثة السوداء ، التي كانت لا شك مستعارة

فلما تقدم إليه الخادم بصحن اللحم الغليظ وقنينة الجعة ، ووضعهما أمامه ، وهم بالانصراف ليباشر خدمة غيره من الآكلين استمهله الرجل بإشارة من يده ، ثم أخرج من جيبه ورقة مالية وست رقاع ، وراح يقول للخادم في صوت خافت :

— أترى هذه الورقة المالية؟

فأطرق النادل بإيماءة الاعجاب : أي نعم أراها ياسيدي

فأشار الرجل الغامض إلى ناحيات المطعم فيما وراء العمود الذي اختفت في ظله مائدته وقال للخادم :

— أترى هذه الموائد الست المرصوصة بجانب الحائط ؟

فالتفت الخادم إليها ، فرأى إلى مائدة منها يجلس رجل منفرداً ، وعلى المائدة الثانية رجلان ، وإلى كل من الموائد الأربع الباقية قد جلس رجل وامرأة

فقال الخادم : وماذا تريد ياسيدي من هؤلاء الأضياف ؟

قال الرجل : أريد أن تذهب إلى كل مائدة

تعريف بالقصة

جوزيف بلاكبيرد من كتاب القصة القصيرة المروعة ، وهو نوع من الرواية الحديثة ، اكتسب حق الاقامة في مدينة الأدب . وليس كله وهما ولا خيالا ولا تسلية ، فكثير منه مؤسس على فكرة ورأي ومعرفة عميقة بأطوار النفس البشرية . وكان ستيفان زفايج ، أحد أدباء الألمان العلماء المنتمين إلى أحد الأجناس السامية ، قد وضع قصصاً في وصف الخوف والغيرة والهوى ، تطبيقاً على مبادئ أستاذه سيجموند فرويد ، فلقيت نجاحاً لاستوائها على أسس من الحقيقة الثابتة والأمور المشاهدة . وقد تناول جوزيف بلاكبيرد في قصته « حذار إنك مراقب » التي نشرت في سنة ١٩٣٦ موضوعاً مما له علاقة بعلم النفس المرضي وعالجه بمهارة فائقة ولم يغفل جانب العواطف والاجتماع فجاءت القصة حائزة لشروط التوفيق الفني من حيث العقدة والحبكة وتناسب الأجزاء وتحليل النفسيات الغامضة

منها فتضع رقعة من هـذه الرقاع أمام الجالسين وتقول : « من صديق ! » ثم تعود إليّ ولك هذه الورقة المالية تنعم بها ، أفهمت ؟

فنظر الخادم حوله وهو خائف من عين صاحب المطعم تبصره ، وهو من نظرات الرجل الغامض أخوف ... فلما اطمأن تناول الورقة المالية والرقاع وتولى مسرعاً ليربح المال الذى فى يده ، وراح يوزع الرقاع ، وجعل الرجل يراعيه ويرقبه وهو يمشى من مائدة إلى مائدة

* * *

كان جورج أديكت دراج انجليزياً عائداً من المستعمرات ، وقد أدمن التخدير بالأفيون ، ذلك النبات الرهيب ، باعث الألم واللذة . ولم يكن يفقه معناه حين سمع اسمه ، إلا كمن يفقه معنى المن والسلوى . وكيف له بفهم ما لم يحط به علماً ؟ أما الآن ، بعد أن مضى عليه عشرون عاماً فى نعيمه وجحيمه فما أعجب معنى هذا الاسم وأغربه ! وما أقرعه فى فؤاده لأوتار الحزن تارة ، ولأوتار السرور طوراً ! وما أبعثه لأليم الذكرى مرة ، وللذيذها أخرى !

وكان جورج أديكت دراج لا يزال يذكر ذلك اليوم الذى فتحت له الأقدار فى آخره باب الفردوس والجحيم

كان العصر قد دنا فى مدينة كلكتا فى موسم « المونسون » والجو ممطر مكفهر ، وليس فى طاقة الأرض أن تعرض منظراً أبعث للانقباض والكآبة لعينى أغرب معذب من ذلك اليوم الهندى العبوس القمطرير ، فصادف فى سبيله ، وهو فى أشد حالات الأسى والسوداء ، دكان عقاقير ، وكأنما استحسن صاحب الدكان أن يقاسم الجو فى عبوسه وكآبته ، فتراءى لجورج أديكت دراج أبلدَ ما يكون ، وأثقل ما يُنتظر ؛ فلما أن طلب منه الأفيون أعطاه إياه ، ومن الروبية التى دفعها إليه رد دراهم مضروبة من النحاس قد أخذها العقاري بيده من صندوقه الخشبي . فتحول جورج عن بائع المخدر ولم يصبر عن ازدراده حتى يصل إلى ناديه أو مسكنه ؛ وشعر بعد برهة بتلك اللذة الثابتة المقيمة التى توهم أنها أدخلت على ملكات ذهنه الأسير أتم النظام والترتيب والائتلاف ؛ وأحسّ فى ظلمات نفسه الحزينة الولهى بشىء يشبه الضياء الساكن السوىّ . وعادت إليه تلك الحالة التى يسترجعها الذهن عقب خلاصه من برحاء آلام طالما حاربت نزعات نفسه ، وأخلّت بميزانها . وهكذا قيّد جورج أديكت دراج اسمه فى سجل المدمنين . فلما عاد من الهند إلى لندن ، وهى مسقط رأسه ، لم يستطع الفكاك من أغلال تلك العادة . وقد ألف أن يتناول العشاء فى مطعم كلاردج بعد أن يكون أدخل السكينة والطمأنينة والاعتدال على ملكات نفسه بجرعته المخدرة ؛ وكان فى تلك الليلة يشعر كأنه نشط من عقال ، وقد عهد الأفيون مورثاً للخفة والنشاط ، ولطالما حداه إلى الملاعب والأسواق فاغتبط بجولاته نَمَتَ ، وكان اغتباطه فى تلك الليلة مضاعفاً بفضل ذلك السم الذى ابتلعه ، فجلس يأكل وحيداً ، لا صديقة تؤانسه ولا رفيق يؤاكله ، وكان فى بزة نظيفة على طراز هواة الأفيون يلوح عليه أنه من الخاصة ، ويأنف أن يمس النسيم شعرة من رأسه . فلما التقط الرقعة من فوق المائدة تصفحها فى لهفة ،

فبدا عليه الخوف ، وظهرت فى وجهه دلائل الجزع ، وجعل يشد على شفته العليا بأسنانه يريد أن يمنعها من الارتجاف

* * *

وعلى المائدة الثانية يجلس رجل وامرأة ، فلما وضع الخادم بين أيديهما الرقعة ، كانا فى شغل شاغل بحديثهما عما حولهما ، فلم ينتبها للخادم وهو يضعها . وكان الفتى اسمه فيكو واسم الفتاة پيليس [1] وهما فى مقتبل الشباب ، وكانا حديثي العهد بالحب . ومن سُنَّة الطبيعة أنها منحت الشباب للبشرية ليكون باعثاً لها على الولوع بمحاسن الجنس ، حتى تصبح هذه المحاسن فى عينها أجلى مظهر لروح الجمال ، حتى إذا انقدحت بين الفتى والفتاة شرارة الحب الصحيح لم تزل تعظم حتى تشمل أشعتها جميع الخلق وتضىء الكون أجمع بسناها الباهر . كان يبدو على الشاب أنه طالب علم فى إحدى كليات جامعة لندن ، أما الفتاة فلم ترد على أن تكون ريفية من يوركشير لم ينقض على ورودها شاطىء الحياة أكثر من شهر ، فلا تزال نضارة الخضرة وطراوة الماء وجمال المروج الزمردية ، وصورة السعادة البيتية ماثلة لذهنها . ولكنها كانت ثرثارة ونهمة فى الحب نهمها فى الطعام والشراب ، كما كان فتاها جائعاً محروماً من الاثنين معاً ، ولذا بدا أصفر الوجه بلون العاج هزيلاً ضاوياً ، وتجلت هى غضة بضة هانئة هادئة ، لولا حركة لسانها الذى كان كبندول الساعة لا يفتأ ذاهباً جائياً ، رائحاً غادياً ، بين شدقيها الرقيقين المطاطين

* * *

(١) پيليس اسم يونانى الأصل معناه غصن

وكان الرجل الجالس إلى المرأة فى المائدة الثالثة ممسكا بيدها يلاعبها ويشدها خفية تحت غطاء المائدة وقد اشتبكت أقدامهما والتفت ساقاها كأنهما لا يصبران على الانفصال فترة العشاء الوجيزة . فلما قرأ الرقعة الموضوعة أمام عينيه ويده لا تزال فى مكانها ، أفلت يد صاحبته من يده بسرعة كأنما يفلت من يده قطعة من الحديد محماة على نار مشتعلة لذّاعة . وكانت الكلمات التى احتوتها الرقعة هى : « حذار إنك مراقب ! » فسحب الرجل ساقه وقدمه من مكانهما الدافئ ، ودفع إلى جليسته بالرقعة وهو يرسل ضحكة عصبية مضطربة ... فتأملتها قليلاً ثم قالت فى هدوء تام : أهذا أفلتّ يدى وسحبت رجلك أيها الغلام الجبان ؟ والله إنك أبله ! وماذا علينا لو كنا مراقبين ؟ فضحك الرجل ضحكة أخرى أشد عصبية واضطراباً من الأولى وأجاب متشجعاً : لاشىء حقاً ! ففى صحة الحب نشرب ، ورفع الكأس فاشتفها ؛ وفعلت المرأة مثله فاجترعت كأسها وعادا إلى اشتباكهما السفلى

* * *

على المائدة الرابعة جلس رجل وسيدة من أهل الشمال ، وكان الرجل عابساً مقطباً كأن به مللاً أو سآمة . فلما قرأ الرقعة استضحك وقال لصاحبته التى تؤاكله : ليت شعرى من منا المقصود بالذات بهذا التحذير يا ماتيلدا العزيزة ؟ يلوح لى أن شرلوك هولمز فعل ذلك لكى يفهمنا أن لندن فى عاداتها وآدابها غير منشستر تقيضاً نقيضاً !

فأجابت المرأة : إنها لفكرة جميلة من مستر هولمز ليخيل إلينا أننا فى فصل من رواية شرطية :

فضحك الرجل وقال لها : وإننا كما تقولين ، فان ذلك الوغد برلسكو لقادر أن يبيعنا الأسلحة ، ثم يغرى بنا سكوتلانديارد [1] ، ليصادرها فنعاود الشراء منه ، ونحن لا نعلم أنه المصدر المجهول المتصل برجال الخفية اتصالا وثيقاً

فقالت ماتيلدا : ومتى كان شراء الأسلحة بالجملة محظوراً فى هذه البلاد ؟ أهى نقود مزيفة أم بضائع مهربة ؟ فقال : التجارة حرة فى بلادنا ، ما فى ذلك شك ، ولكن أسلحتنا لا تحمل علامة المصنع الذى يخرجها وقد عثر المحققون عليها فى كل حادثة من حوادث القتل التى وقعت فى برمنجهام وليفربول ومنشستر لثلاثة أعوام منصرمة . فما قولك فى هذا الدليل علينا بأننا نشارك الجناة بالمساعدة والاتفاق ؟

أجابت : إنه ليس دليلاً ، ولكن قرينة حال ، حتى ولا قرينة ، بل شبهة ، والشبهة قد تعلل بالمصادفة أحياناً . لسنا مسئولين عن كل سلاح نارى لا يحمل علامة المصنع . لو أن كل قتيل ممن ذكرت كان يحمل على جبينه أو معصمه علامة المثلث المزدوج وضبطت أداة الدمغة فى حيازتك أو حيازتى ، إذن لحق القول علينا ، ولكن السلاح وحده لا يكفى ، ولا يثبت المشاركة

— قد تكونين على حق ، ولكنك بلا ريب جريئة ، أنصبر على أنفسنا حتى تضبط لدينا الدمغة والأسلحة ، ولا نتعظ بهذا التحذير الذى صادف وقته ...

— ومن يدرينا أنه ليس استدراجاً واستطلاعاً من أحد خصومنا يريد أن يتثبت من شىء وينظر أن يبدو علينا ما يؤيد ظنونه ليبطش بنا ، فما علينا إلا أن نظهر الثبات والتؤدة وعدم الاكتراث بتلك الرقعة الفاترة

— كيف يكون الثبات فى لندن ، وفى مطعم كلاريدج ؟

— كالثبات والبرود فى منشستر وفى مطعم ليونز حذوك النعل بالنعل . إبدأ بتمزيق الورقة شذر مذر أو أشعل بها غليونك ثم اشرب كأسك واضحك بقهقهة عالية

فتشجع الرجل وأجاب : الحق بيدك دائماً ، ففى صحة المثلث المزدوج والسلاح الغُفل من ماركة المصنع نشرب ، ورفع الكأس فاشتفها ، وفعلت المرأة مثله فاجترعت كأسها

* * *

وعلى المائدة الخامسة جلس رجل وامرأة . فلما قرأ الرقعة راح يقول لها وهى إزاءه :

— أدب رائع من هذا الرقيب المجهول ، ولكنك تعلمين أنه كلما بادر زوجك إلى إدراك سرنا استطعت أن تتخلصى منه وتروحى طليقة

فقالت : وما بالك لا تخشى فضيحة المحكمة وشهود الاثبات ؟ ألأنك رجل تضمن إعجاب الرجال بك وتنسى ما يفتابنى من التشنيع وهتك أستار حياتى الخاصة

أجاب : حياتك الخاصة ؟ بل حياتنا . أقرأت فى صحيفة قضايا الطلاق اسم امرأة غير مقترن الى اسم شريكها . وماذا علينا إذا لم يتمكن زوجك من

(١) إدارة الأمن العام والبحوث الجنائية ووكر التجسس الانجليزى

مفاجأتنا متلبسين فى بيت الزوجية المحترم ، وهذا مالن نقع فيه أبداً ، فالخير كل الخير فى الفنادق والسيارات !

— وأهلى وعشيرتى وأصدقاء أسرتى ؟

— أهلك وعشيرتك وأهلى وعشيرتى ؟ كلهم يفعلون ما نفعل ويستترون ! قد يكون فى مسلكنا بعض الاستهتار ، ولكن الناس لا يحقدون على العشاق لأنهم يستوون فى الهوى ، ولأن الدنيا تكره الوقار

— الحق بيدك . فهذه مسز تريفلان على جلالة قدرها وضخامة اسم زوجها وشهرة أبيها ، لم تخف غرامها بسائس خيلها بعد المصارع جيمى والملاكم دوجار . ولادى كويفر التى كانت معروفة بالتقوى وغشيان الكنيسة فى كل أحد من آحاد السنة ، فرطت فى عرضها لذلك الشاعر المفلوك كويكر ، وعرضت شرف أجدادها وأسلاف زوجها لسخرية الشهود والمحامين والقضاة والجمهور الهازئ ، وهى لا تؤمل أن تتزوج منه ، ولا تطمع فى حمل اسمه الحقير ، بعد أن حملت اسم زوجها النبيل عشرين سنة كاملة

أجاب : الآن تتكلمين عن عقل وتصدرين عن منطق . ألم تقولى فى أول حبنا : من راقب الناس مات غمًّا ، ونصحت إلى أن نفوز باللذات . أنصبر حتى نكتهل خشية العار المزعوم ، وما رأينا أحداً يخشاه سوانا ؟ العالم كما كان ... اقتناص المال واللذة

فقالت : ولكن بربك قل لى : من يكون ذلك المحذر اللبق ؟

أجاب : لعله البصاص الذى دفعه زوجك ، ودفع له — ليراقبنا — أجره الرفيع ، وقد خانه !

فقالت : ولم يخونه وهو مأجور منه ومدسوس علينا ؟

أجاب : لعله أشفق علينا أو استثقل ظل زوجك . إن مجرد عاطفة حنان نحونا ، أو اكتشاف حقيقة زوجك ، وأنه أكبر نطع فى الإمبراطورية ، كاف لتحويل دفة الجاسوس من العداء الخفى إلى المحبة الظاهرة . من يدرى ؟ لعل الجاسوس هو نفسه عاشق امرأة متزوجة وهو يؤاكلها الآن ويشرب معها كما نشرب

— وهل تراه ينفق مال زوجى فى خديعته فيحظى بحب امرأة ويحذرنا فى وقت واحد ؟

— نعم ... نعم يا عزيزتى ، فيضرب طيرين بل ثلاثة أطيار بحجر ، فماذا علينا لو كنا مراقبين ؟

فتشجعت صاحبته وقالت : لا شىء حقًّا ، ففى صحة الجاسوس الرحيم نشرب . ورفعت الكأس فاشتفتها ، وفعل الرجل مثلها فاجترع كأسه

* * *

ولما قرأ الرجل الجالس إلى المائدة السادسة قال لصاحبته مغضباً :

— أرأيت ما كان أغنانا عن الدخول فى مطاعم الطبقة العالية ؟ وما لنا والجلوس فى هذه المطاعم الفخمة ؟ لقد رأك وحق السماء صاحب المطعم وأنت تلتهمين الفاصولية بالسكين ، وتلتقطين الحب المنتثر فوق غطاء المائدة فترمينه فى فمك كالطير ، ثم تلعقين أصابعك وتكادين تلعقين الوعاء كأنك موكولة بتنظيفه وتنقيته من بقايا الإدام ... ! وتشربين الأقداح حتى الثمالة ، فتعود الأطباق والكؤوس

فارغة ، فأرسل إلينا بهذا التحذير الغريب . ألا ترمين بالسكين جانباً ، وتأخذين الفاصولية بالشوكة وتغنينا عن هذه الفضيحة الصارخة ؟

فقالت : كأنك أنت وحدك الحديث النعمة ، لم تصبك الثروة إلا من أرباح الحرب ، فتخشى انتقاد أصحاب المطاعم وهم لا يبلغون شأو الخدم فى قصرنا . ومَن من طبقتنا أتقن الأكل بالشوكة والسكين كما أتقناه ؟ ألم نأخذ دروساً خصوصية على يد بريدج ذلك الجرسون الماهر فى مطعم والدورف ؟ لقد تكسرت أناملى حتى تمكنت من تلك الطريقة المؤلمة التى تحتم الضغط بالسبابة ورفع البنصر والتواء الخنصر وتصويب أسنان الشوكة إلى الشواء وحزه بالسكين بمنتهى الأناقة ، ولكن لماذا يذهب ذهنك إلى نقصى فى أدب المائدة ، ولا يذهب ذهنك إلى تزوير دفاترك ، لتجعل الدخل أقل مما هو ، حتى توفر مبلغاً ضخماً من ضرائب الايراد ، فتبعث إدارة المكوس وراءك من يقبض عليك بتهمة خيانة الخزانة العامة ؟ ليس أكل الفاصولية بالسكين جريمة ، ولكن سرقة مال الدولة بعد استلاب مال المتمولين هو الجريمة الكبرى والطامة العظمى .

فامتقع لون الرجل ووقعت الشوكة من يده . وقال : يالك من متذرة بالسوء ! ألا تخشين أن يكون الرقيب متسمعاً ؟ إن دفاترى دقيقة ، وقرينة الصدق والحقيقة . ومن لم يقل لك ذلك فقد خدعك ، حتى ولو كان أخاك ذلك الحوذى اللئيم الذى رفعته إلى رياسة المحاسبة فى متاجري .

— قد يكون أخى حوذياً كما تقول ، ولكنه لا يشى بك ؛ وإن وشى بك فلأنك بلا شك تستغل مواهبه وتظلمه ولا تقدره قدره

— أنا ؟ أستغل مواهب ذلك الفدم الذى لا يعرف الفرق بين الصفر وشراع السفينة ! سأطرده غداً فى أولى ساعات العمل . سأرسل به إلى حيث ينتفع بمواهبه ، إلى اصطبلات هوايت شابل ، أو مرابط الخيل فى دربي شاير . سيجنى أخوك يا حلوة الشمائل ثمار أعماله وأقوالك ... بئس الصهر هو ، وتعساً للنسب الذى يجر وراءه الفضيحة والبلاء والنميمة والوشاية يتلوها الوعيد والغدر !

— كل هذا يا چاك لأننى أكلت الفاصولية بالسكين ؟ أم لأنك تحمل هم الحساب العسير بعد العشاء . والله ، لقد كرهتنى فى الغنى المفاجىء ! أنسيتَ إذ كنت عاملاً ، وأنا موظفة صغيرة ، نُنقد أجرة الأسبوع مساء السبت لنستريح يوم الأحد ونشارك أبناء طائفتنا الضراء والسراء ونواسى أهلنا ؟

— لا جرم أننا لقينا آنفاً من آلام الفقر أكثر مما أود أن تذكرينى به . وأما مسرات الفقراء وآمالهم ودواعى عزائمهم وسلوتهم واستراحتهم من الجهد والنصب ، فانها ما لا يمكن أن يقاس بما نحن فيه من النعمة .

— إذن وجب عليك ألا تتخذ من سعادتك الحاضرة وسيلة لإلحاق الأذى بأقرب الناس إلىّ . وإلا ...

— وإلا .. ماذا ؟ أتمى كلامك . فاني لا أتحمل تهديدك .

— وإلا فإننى أكون المبلغة عن دفاترك وغيرها .

— أنتِ ياصلعاء ؟ أتحسبين جاك مكدوجال يبيت فى أحضان حية مثلك وهو أعزل ؟ لقد أعددت لك أدلة مادية تزج بك فى أعماق السجون . فأتفدى بك قبل أن تتعشى بى . فذعرت المرأة ولكنها لجأت إلى الحيلة . فضحكت ضحكا عالياً . وقالت : لعلنا نندم على مادار بيننا ؛ وقد نكون واهمين فى مخاوفنا مبالغين فى تقديرها ولم يصبنا سوى مرارة الأنفس من رفع القناع عن عواطفنا التى كانت مبرقعة وقابعة فى حنايا أضلاعنا . . وماذا علينا لو كنا مراقبين ؟ فتشجع صاحبها وأجاب : لا شىء حقاً ، ففى صحة الفقر القديم والغنى الطارىء ، ورفع الكأس فاشتفها ، وفعلت المرأة مثله فاجترعت كأسها .

* * *

هذا ، وكان الرجل الغامض صاحب هذا التدبير ، القابع وراء العمود الأبيض يرقب رقاعه وقارئيها فى لهفة ودقة بصر ، ولكنه لم يسمع شيئاً مما دار على الموائد ، لأن الذين قرأوها لم يلبثوا أن ضموها جانباً فوق الموائد ، وعادوا إلى ما كانوا فيه من الأكل والسمر ، إلا جورج أديكت دراج الجالس إلى المائدة الأولى وهو مدمن الأفيون فقد بدا عليه من دلائل الاضطراب والجزع ما بدا . ثم راح يلتفت يمنة ويسرة وهو فى أشد حالات الخوف وشفتاه ترتجفان ؛ والتقط الرقعة مرة أخرى فقرأها ثم وضعها فى خوف ووجل ، ورفع يده إلى جبينه ونظر إلى الجلوس ثم لم يلبث بغتة أن استوى واقفاً كأنما طُعن فى صدره ، فجاءه خادم المطعم مسرعاً فقال له : علىّ بقائمة الحساب ! أسرع ! وقدحاً من الكونياك . ولم يتم كلامه حتى نهض من مجلسه ثانية . وإذ ذاك التقت نظراته بنظرات الرجل الغامض صاحب الرقاع ، فعاد إلى الجلوس كأنما قد خانته قدماه وخذلته قواه ومضى يصرخ على الخادم : أسرع ! الحساب وكأساً من الكونياك .. كأساً كبيرة من الكونياك ، ثم الحساب ! هلم ! أسرع . فلما جاء الخادم إليه بالحساب والشراب أطلع من جيبه رزمة كثيفة من الأوراق المالية التى جلبها من الهند ، ورمى للرجل بالحساب والبقشيش متعجلاً ، ودفع ببقية أوراقه المالية إلى جيبه مسرعاً وهو يطبقها تطبيقاً ويلويها لياً عنيفاً ؛ واشتف الكأس دفعة واحدة وخرج من المطعم متعثراً يحمل رجليه حملاً . وكان جورج أديكت دراج قد هجر الخمرة من زمن طويل ، منذ تعود الأفيون ، لأنه أنف اللذة المتولدة من الخمر التى عهدها نشوة تدريجية لا تزال فى سرعة حتى تبلغ القمة ، ثم تأخذ تنحدر وتهبط فكأنما هى لهيب مضطرب يشوش الذهن ويشل الإرادة ويسلب ضابطة النفس ، وتحدث اختلالاً فى ملكة التمييز والحكم . ولكنه شرب الكونياك مرغماً مضطراً ليعينه على مقاومة الخوف والاضطراب

ورآه الرجل الغامض فدفع حسابه للخادم ، وتناول قبعته ومضى من المطعم وأدرك جورج أديكت دراج وهو فى أشد اضطرابه أن الرجل الغامض يطارده فعدا وهو متخاذل القوى إلى سيارة مأجورة ، ولكنه ما كاد يستوى فى مجلسه منها حتى أبصر من خلال زجاجها وجه الرجل الآخر ينظر إليه ، فصرخ صرخة رعب شديدة وقفز إلى إفريز الطريق وانطلق يعدو صوب إحدى حدائق النزهة ، ومشى الآخر فى أثره يتبعه فعدا يريد محطة الترام ، ولكنه ما كاد يعطف فى الشارع حتى

رأى ذلك الرجل واقفاً أمام حانوت بدال ، فانسل مسرعاً حتى بلغ المحطة ، وابتاع تذكرة ووقف ينتظر القطار ، وقد ظن أنه أفلت من ذلك الرجل الذى كان يتبعه ، ولكنه لم يكد يلتفت وراءه حتى أبصر به واقفاً فوق إفريز الشارع يبتسم ابتسامة شنيعة وهو يفتل شاربيه المشوشين ، فخالس الرجل حتى إذا ظن أنه لا يراه انفلت من فتحة هناك فى جانب الطريق إلى المحطة ، وكان القطار متدانياً ، فكبر أمله وتشجع قلبه ، ولكنه ما كاد ينظر إلى اللوحة المعلقة فوق الجدار وهى : — القطار الأول لا يقف بهذه المحطة — حتى تولاه اليأس مرة أخرى ومات الرجاء ، والتفت فأبصر الرجل المخيف وراءه يبتسم ابتسامته المرعبة ، فاشتد قنوطه ، وحاول أن يندفع صوبه ويصيح به : « أسألك بأى حق تطاردنى ؟ » ولكنه عاد فخشى أن يتعجل الحوادث وصبر على جمر حتى أقبل القطار التالى الذى يقف بالمحطة فوثب إليه وهو يكاد يسقط . فلما استقر به مكانه فى المركبة ظن أن الرجل قد ابتعد عنه وأنه قد أصبح فى نجوة من تعقبه . ولكنه إذ وقف القطار ونزل منه لمح الرجل ينزل من المركبة الأخرى فعاد فوثب إلى القطار مرة أخرى وهو فى أشد حالات الرعب ، وجعل فى كل محطة يحاول النزول ، ولكن خوفه من أن يكون الرجل الذى يطارده فى القطار جعل يمسكه عن النزول ، ولكنه إذ بلغ محطة بعيدة عن المحطة التى كان ينبغى أن ينزل عندها بحكم التذكرة التى ابتاعها ، لم يجد مطارده فى غمار الركب والجمهور المزدحم عند الأفريز ، فمشى إلى باب المحطة مسرعاً حتى وصله قبل المسافرين ، فاطمأن قليلاً واعتزم أن يتخذ القطار المكان الذى يقصد إليه فى ريتشموند ، فابتاع تذكرة من الشباك وانطلق مسرعاً يريد الركوب ، ولكنه ما كاد يخطو خطوات قلائل حتى أبصر الرجل الغامض قد ابتاع تذكرتين إلى ريتشموند ، فاشتد به الجزع ، واستولى عليه القنوط ، فدلف نحو الرجل وقال بصوت مرتجف ووجه مرتعد : « بحق السماء تنبئنى يا سيدى ماذا تريد منى ؟ أتريد مالاً ؟ » فنظر إليه الرجل الغامض بعين ماكرة ونظرة خبيثة وقال : « لم يضرب إلى الآن المال الذي يستطيع أن يُغرى مثلى بترك واجبه »

فاه بهذه الكلمات بكبر وخيلاء ونظر إلى الرجل نظرة سطوة وعزة ، وكأنما أراد أن يسمع الجمهور الذي حوله تصفيقاً له على ما قال ، وإذ ذاك عاد المسكين يسأله : « إذن فما الذى تريد منى ؟ ومهما يكن فافعل ما تريد منى فوراً ، بلا تردد ! » وإذ ذاك رفع يده تضرعاً وعاد يقول : « افعل بى ما شئت ياسيدي حالاً ولا تتمهل ! انقذنى من ألمى ومخاوفى »

فابتسم الرجل الغامض وأجاب : لم يحن الوقت بعد ! الناس حولنا كثيرون ، والطريق غاصة بالسابلة . إنك تستطيع أن تقاوم بضع ساعات

وهنا كان قد وصل القطار ، واندفع الناس صوب الإفريز يطلبون ركوبا ، فالتفت جورج أديكت دراج وراءه فرأى شرطياً يمشى تمشت ، فهرع إليه وهو يصرخ : أنقذنى أيها الشرطى ، إن إنساناً يطاردنى . فنظر إليه الشرطى ملياً ببرود نادر المثال

ثم قال : خلِّ عنك أيها الرجل وسر هادئاً إلى بيتك وخذ فنجاناً من الشاى ثم ادخل سريرك ، فإن الشاى والنوم كفيلان بأن يذهبا عنك سكرتك

فصاح جورج باكياً : كلا ! لست فى صرعة شراب ، إننى مطارد ! إن رجلاً يطاردنى . قال الشرطى : هل تريدنى أن أقبض على أحد ؟ قال جورج مرتعشاً : نعم أريد أن أسلمه إليك . فأجاب الشرطى : إذن فأشر إليه ودلنى على مكانه من غمار هذه الجماهير ، فنظر جورج أديكت دراج حوله نظرة ذهول ورعب لا يُقدران ، والناس متدفعون من المحطة ولم يكن الرجل اللعين فى غمارهم . فقال الشرطى ضاحكا : ألم أقل لك إن الشراب لا يزال آخذاً بلبك ، خير لك أن تستشير طبيباً يداويك من علة الأعصاب ! وما كاد الشرطى ينتهى من كلماته حتى أشاح بوجهه وولى المسكين ظهره وانطلق فى الشارع معرضاً

والتفت الهارب حوله فأبصر عدة زوارق عند ضفة النهر واقفة وأربابها يرتقبون عملاً فجرى جورج إلى أقرب رجل منه ، وألقى فى يده عشرة شلنات وصاح به : أسرع بى إلى أى مكان ، وسأخبرك بالجهة التى أقصد إليها بعد أن تتوسط بنا الماء ... هلم ... ادفع الزورق ...

ولم يكن هناك أثر للرجل المخيف ولكن ما كاد يجلس المسكين فى القارب وقد تملكه التعب فاستلقى على ظهره ، حتى أبصر عدوه الذى يطارده قد انحدر يطلب الركوب فى نفس القارب وقد وقف يكلم صاحب الزورق وسمع هذا يقول للرجل المخيف :

— معذرة أيها السيد فقد تعهدت لهذا السيد أن أروح عنه بنزهة صغيرة فى النهر مابه من تعب ولهذا لا أستطيع أن أسير بك ... فألقى الرجل الغامض فى يد رب السفينة ورقة مالية وقال : « لاضير ولا سوء من ركوبى ، فلن يحرم السيد نعمة النزهة ، ولعلك مستطيع أن تضاعف السرعة بنا فأجاب صاحب الزورق : إذا كان ذلك ، فهلم اركب ياسيدى . وانطلق الزورق بالرجلين ، فذعر جورج وحاول الكلام فلم يستطع ، ولكنه إذ استطاع أن يملك صوته جعل يقول : كيف اجترأت أن تركب معي فى زورقى الذى استأجرته ؟ وإذ ذاك جمدت الكلمات على شفتيه فلم يتم ، وكان الرجل جالساً بجانبه لا ينظر إليه كأنه غير شاعر بوجوده . فلما تكلم التفت إليه مبتسماً وقال : « لم يحن الوقت بعد للكلام » ووصل الزورق إذ ذاك إلى الضفة الأخرى فعدا جورج يطلب النجاة . هناك لاح بيت صغير فوق رابية ذات شجر ، وكان هذا هو المكان الذى يطلبه والدار الآمنة التى يعتصم بها لو أنه استطاع وصولا وهو يجرى ويلهث ويشهق ويزأر ويبكي ، لأن بينه وبين تلك الدار ثلاثة أميال . وهنا التفت وراءه فألفى الرجل قد حسر عن رأسه ووضع قبعته تحت إبطه ، وكان شعره يتطاير مع الهواء وشارباه مرتفعين فى الريح وقد انتصبت المسافة الآن بينهما ، والرجل الغامض الضخم قد تصبب عرقاً وهو يصرخ صرخات مرعبة ، وأخذ جورج يسائل نفسه : أى أمر وأى جرم يخشاه ؟ وأية جناية ارتكبها ويشفق من الاعتقال من أجلها ؟

وكان الرجل الضخم على مسافة خمسين ياردة من فريسته ، ولكنه لم يستطع أن يقرب شيئاً من هذه المسافة ، وكأنما كانت الهمهمة المخيفة التي كانت تصدر منه وهو في جهاده العنيف يطارد الهارب تدفع هذا المسكين إلى الأمام ؛ وأخيراً وصل جورج اديكت دراج إلى الدار وكان بابها مفتوحا فقفز إليه وعدا يصرخ طالباً الغياث ، ووصل الرجل الغامض بعده بفترة ، وأبصر من خلال باب الحديقة داراً مضيئة فصرخ صرخة ألمية ، وأدار وجهه وقد علته سحابة من الحزن ، ثم انطلق على آخر سرعة كأنما قد شطحت وراءه الشياطين تتبع أثره

قال جورج اديكت دراج للطبيب سكوايز فارمر في حجرة الاستقبال في تلك الدار وقد هدأت ثائرته قليلا : هأنذا قد عدت إليك ، فدعني في كنفك بحق السموات . دعني في حراستك ، لقد عادت إليّ النوبة ، إن رجلاً يطاردني . إن قوة مخيفة تجري في أثري ...

فجعل الطبيب يتفحصه ثم أنشأ يقول ملاطفاً : أؤكد لك أنك قد شفيت الآن من أوهامك وأخيلتك وتأثير العقاقير التي كنت ملحاً على تعاطيها لقد كان رعبك غريباً ، رعب المجهول والخوف من النامض والبهم ، رعب الوهم والرعدة التي تسري في البدن من الخيال الذي تخلقه الأعصاب الضعيفة

فتشبث جورج بالطبيب خائفاً يرتعد وهو يقول: بالله عليك لا تطردني من مستشفاك ، دعني أظل في حراستك . فقال الطبيب مخففاً من آلامه : هوّن عليك ! سأذهب معك فإن هذا الحادث غريب طلى وسنعود غداً إلى مطعم كلاريدج ، ولعلي مستطيع أن أثبت لك أن ما رأيت اليوم كان حقيقة لا وهماً وواقعاً لا خيالاً

* * *

في جلسة العشاء بذلك المطعم مساء اليوم التالي كان الرجل الضخم الغامض جالساً في مكانه الذي كان يشغله ليلة الأمس ، وكان يرقب الموائد التي أمامه ، والرقاع نفسها ، رقاع العشية الماضية أمام مائدته ، وكان يلوح عليه الغضب ، وكان محنقاً لأن الرجل الجالس على المائدة السادسة كان موليه ظهره ، وكان الرجل جالساً وحده ، وفي المائدة القريبة منه جلس رجلان قويان شديدا الأسر ، وقد كان العاشقان اللذان كانا بالأمس في شغل شاغل بالتغزل والنجوى والسمر عن كل شيء حولهما ، في مكانهما الذي كانا يجلسان فيه بالأمس فلم يحفلا بالحادثة والخادم يضع أمامهما الرقمة . ولكن بدا على الرجل الجالس إلى المائدة السادسة أمارات الاضطراب ، فتحفز الرجل الضخم الغامض صاحب الرقاع في مجلسه ، وتطاول ومد عنقه ليدري أثر رقمته في معارف وجه الرجل ، فرأى الرقمة تسقط من يده وإذ ذاك نهض الرجلان الجالسان إلى المائدة القريبة ومشيا يريدان الخروج ، ونهض الرجل الجالس إلى المائدة السادسة وهو يتعثر في أذياله مضطرباً راجفاً ، وهنا بدت على الرجل الغامض آثار السرور وابتسم ابتسامة خبيثة وأصدر صوتاً مخيفاً لعيناً أشبه بهرير الكلاب ومشى في إثر الطريدة . وإذ ذاك انقض عليه الرجلان القويان المفتولا السواعد وحملاه إلى

سيارة واقفة بباب المطعم وهو يصرخ ويرغى ويزبد وألقيا به مكتوفاً وانطلقت به السيارة عادية ؛ وعندئذ عاد الرجل الذى كان يتصنع الاضطراب والخوف إلى مائدته فاسترسل فى عشائه ، وإذ ذاك انضم إليه جورج إديكت ورفيق له

قال الرجل وكان هو سكوار فارس طبيب الأمس لجورج اديكت : أرأيت يا صاحبى أن الرجل الذى بطاردك حقيقة لا شبحاً ولا خيالا ولا وهماً .. هذه رقعته التى تعود أن يكتبها ! حذار ! إنك مراقب : هذه هى الحيلة التى جعل بها يخرج الفيران من جحورها ، فعل الهرة بالفأرة . ذلك الرجل كان مريضاً وكنت أعالجه وقد مكث أشهراً لدىّ فى المستشفى . وتفصيل قصته أنه وضع قصة تمثيلية عن التجسس فى روسيا القيصرية ، فنجحت وربح من ورائها مالاً طائلا . وقد قام بتمثيل الدور الأول فيها وهو دور الجاسوس فجنى عليه النجاح والكسب ، لأنه لم يستطع منذ ذلك العهد أن يكف عن تمثيل دور الجاسوس فى الحياة ، وذلك بتأثير أخيلته وأعصابه . وهكذا مضى يخيل إليه أنه لا يزال جاسوساً ، وأنه لا يزال موكلا باخراج الفيران من مكامنها . فلما عالجته استأصلت العلة من أعصابه ، ولكن العلة مالبثت أن انتكست عليه فعاوده المرض ، ألا فاحمد الله أن هيأ لك عشية أمس أن تسبقه ببضع يارادات فقد شفيت من مرضك الذى دهاك من إدمان المخدرات والعقاقير السامة .

يا غلام ! علينا بقائمة الحساب !

محمد لطفى جمعه

الفصول والغايات

للفيلسوف الشاعر الكاتب

أبى العلاء المعرى

طرفة من روائع الأدب العربى فى طريقته ، وفى أسلوبه ، وفى معانيه . وهو الذى قال فيه ناقدو أبى العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة فى القاهرة وصدر منذ أسبوع

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زناتى

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد

ويطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة

ويباع فى جميع المكاتب الشهيرة

رفائيـــــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقـــلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً